القصص

بقلم : الدكتور احمد كمال زكي

***

قصة اليوم وفيما تختلف عن قصة الامس ، مشكلة تحتاج الى مناقشات قد لا تنتهي ، الا اننا لا نخطىء اذا قلنا انها الفن ذو البنية المطاطة والشكل الفضفاض . ولقد يمكن في هذه الحال ان نرصد لبعض ملحوظات ربما تبدو من النوافل شيئا ، ولكنها تؤكد ان القص – على توالي الايام – كان يسجل روح العصر دائما . فهو في القرن التاسع عشر نثر منظم مرتبط بمنطق الزمن ، وهو قبل ذلك سرد لا بأس من ان يستمد الاسطورة ويسترفد الملحمة ، وفي القرن العشرين طاقة احتجاج تشبه الى حد ما غنائية القصيدة .

ان القاص المعاصر يريد ان يكشف عن الانسان العادي في حياته العادية .. لا الانسان الفيكتوري المتزمت ، ولا الانسان الخارق الذي يحذق كل شيء ! هو لا يقنع بمنطق روبنسون كروزو ، ولا يرضيه أسلوب بيكويك في الحياة ، ويكره ان يستقصي حقائق الوجود مما يستقي منه جان فالجان او باردليان او روبن هود .

حقا كانت القصة الواقعية هي التعبير المباشر عن حاجات ما قبل اليوم ، غير انه كان مجرد تعبير .. تسجيل لما ترى العين وما تسمع الاذن في أناة واستقصاء ، بحيث يصبح العطاء الادبي كمادة للمعرفة حقائق صغيرة جزئية . اما قصة اليوم ، فهي قصة الكشف النفسي والذهني في اثناء تقديم الاحتجاج ! فعل ذلك كثيرون منهم كامو في « السقطة » ومنهم نجيب محفوظ وغسان كنفاني ، فأزيحت الستر عن اعماق انسانية فيها من الخصب ما يعادل عقم شارلوت الوديعة عند غوته في « آلام فرتر » وشارلوت الشرسة عند ديكنز في « اوليفر تويست » ومدام بوفاري – على سبيل المثال – مع انها طالما اتخذت نموذجا للدقة والاستشراف .

أنا لا أوازن ولا أعلن تحيزي لاي نمط من انماط القصة ، ولكني اقرر ان « حاجات » العصر فرضت قيما جديدة على عمليات السرد التقليدية . فأصبحت بنية القصة بعيدة عن النموذج القديم بما فيه اطراد نحو نهاية بعينها ، وارتبطت بدفقات اللاوعي وهي في سبيل التخلي عن الوصف الخارجي المملول .

يظهر ذلك في الرواية ، وفي الرواية القصيرة ، وفي الاقصوصة او القصة القصيرة على حد سواء . ويكون محك قبولها انها لا تحيد عن الصدق في تصوير روح القلق – وهو مرض العصر – تماما كما ترصد لايقاع الهدوء ، قثمة الشك واليقين ، وثمة التأرجح بين المعرفة والجهل ، وثمة لحظات التوتر بين اسباب الحياة واسباب نقيضها وهو الموت .

في حدود هذا الفهم العام للعمل القصصي قرأت في «آداب» ديسمبر الماضي آثار ادريس الشرايبي ، وعبدالرحمن الربيعي ، ومحمد عبد الولي، وعبد الامير الاعسم ، وحسين قاسم .. أقاصيص خمسا لم يكن وقعها في نفسي واحدا ، ولكني حرصت على ان اقيسها بما لا يخضعها تماما لتصوري العام للقصة القصيرة في اطارها الجديد . ولقد كان الانفلات من هذا التصور صعبا علي حقا ، الا انني راودت نفسي على ان ازعم ان الكتاب – وهم أهواء شتى – لا يمكن ان يلتقوا على الصعيد الذي اريد ، ومن ثم ينبغي ان تكون لهم اساليبهم في الانفعال والتصوير .

ولكني مع ذلك لا أظن اني اغمط اي قاص منهم حقه اذا قلت انهم – باستثناء واحد – لم يرتفعوا الى مستوى قضية الانسان المعاصر ، بل لعل بعضا منهم لم يتصور ذاته – حتى في الاطار الكلاسيكي – الا في حالة شبقية تذكرنا بهذيان احسان عبد القدوس . أتراني أتعجل ؟

اذن فليغفر القارىء هذا التعجل ، على ان يكون شفيعي عنده احساس الالم المض . أفليس عجيبا ان يظل اكثرنا على اول الدرب في حين قطع الشوط – او كاد – قلة قليلة ؟

قصتان من العراق :

« الوكر » للقاص عبد الرحمن الربيعي ، و « الشبح والزيف » لعبد الامير الاعسم .. مناجاة جنسية يتخللها تيه الذات ، وان نمّت الثانية عن اعتدال ! وكان نصيب الحرمان والسقوط لا يختلف في كلتيهما ، فالربيعي يجعل بطله مهدما جائعا ويرشق صاحبته سلمى في قمة بعيدة بعيدة ، والاعسم يصور طبيبه ضائعا لانه لا يجد المرأة التي كان من الممكن ان يراها في « نعيمة » رفيقة صباه .

والربيعي يسطو على سلمى في جرأة دون جوان او يجعلها تسقط أمامه ، والاعسم يرى نعيمة ساقطة فعلا تبيع جسدها في احد ملاهي الليل ، والاثنان معا يكتبان مدفوعين باحساس المراهقين . وعلى الرغم من ان قصتيهما قد تدلان على فنانين واعدين ، فان اجترارهما مغامرات نسائية – بلا أبعاد انسانية – قد قعد بهما عن تحقيق اي شيء ينبغي ان يتحقق في الادب الرفيع .

وليس من ريب في ان كثيرين قد يجدون تفسيرات ما للقصتين ، وربما برز منهم نفر يزعم ان الجنس ارهاص ببعث والبعث يشكل مع الموت قضية العصر ، بل لعل ثمة من يرتفع بهما على اساس ان الحياة نفسها فيها ذلك الطموح الشبقي يلازم البشرية الى الابد .. ولكن أحدا من اولاء لا ينكر انهما لا تنتميان حقيقة الى واقع العراق !

انني اعترف دائما بأن هناك من الاعمال الادبية الناجحة ما لا يرتبط بقضية ما ، غير ان هذه تختلف كل الاختلاف عن الانماط المبتذلة التي دارت ودارت حتى استهلكت ، ومن هذا المستهلك قصة « الوكر » وقصة « الشبح والزيف » . ولست ادري كيف غاب عن صاحبيهما ان المرأة أسمى مما تبدو للمراهقين ، وان العواطف التي تثيرها لا يكون الجنس محورها دائما ، فضلا عن ان قيام العوائق بينها وبين الرجل أمر تقرره الطبيعة ويعترف به المجتمع .

واذن فلم يكن من المفروض ان يدور بطل الوكر في فلك دون جوان

ويقترض فحولته ، ليدمر تلك القاعدة الاجتماعية المقررة . كذلك لم يكن من المستحب ان يغيب عن الاعسم ان نساء الاسرار كن طابع عصر وانتهى ، وان نساء المفاجآت اصبحن لا يعشن الا في قصص الورداني وغراب .

قصة من لبنان :

أنا لا أعرف « حسين قاسم » ولم أقرأ له الا « غبار الدروب » قصة الرحلة الطويلة والبحث الطويل .

ويبدو هذا القاص اللبناني من القلة التي تقارب روح العصر ، ولكنه لا يحسن تماما بلورة احساسه الدرامي . هو قد يغير صوته ، وقد يراوح بين ذبذباته ، وقد ينتقل مع الاصداء من الخوف الى الطمع الى الرجاء الى القلق ثم الى اليأس .. هو قد يفعل ذلك ، ولكنه يفتقد دائما الرباط الذي يجمع كل هذه الاشياء ليجعل منها وثيقة ادانة للمجتمع .

ونحن نرى عنده التاجر المفلس الذي يترك سانتو انجلو الى سان بورجا ثم يعبر الحدود الى سانت تومي بالارجنتين لكي يضيع في الزحام وهو يلتمس أقل ربح .. نراه عنده فنحس انه يرسم به صورة تمثل معادلا لدأب انسان العصر ، لا لان الطريق واحدة ، ولا لان الخاتمة مماثلة ، بل لان ما يسود هو القلق .

وهنا ترتبط في ذهن حسين قاسم تفصيلات القضية وان تكن غائمة .. فالتاجر غريب وأهله يريدون عطاء في الوطن ، وهو يقتر ويقتصد ويريد ان ينضم الى زمرة المهربين ، ويجوع ، ويشتهي ، وتؤرقه ذكرى ، وتثيره أغنية ، ويرهقه الماضي بكل أثقاله .

وعندما يظن انه على وشك التخلص من عذاباته ، يتبين فجأة انه لا يزال عند النقطة التي بدأ منها رحلته . وهذه هي رحلة انسان العصر على الحقيقة ، حركة في لا زمان .. حركة جامدة ان صح هذا التعبير ! ولقد تناولت الاعمال الادبية الحديثة هذا الموضوع ، واستعانت عليه بأساطير القدماء ، ثم قدمته دراما تحلل ألوان الصراع من اجل التمسك بالحياة . وأما حسين قاسم فقد اكتفى بتسجيل توتراته ، في بساطة وصفاء ، وفي نجوة عن الغوص الى اللاوعي . غير اني لست أدري هل تراه كان يفعل غير ذلك اذا امتد به نسيج القصة اكثر مما امتد ؟

قصة من اليمن :

جميل جدا ان أقرأ قصة من اليمن ، وأجمل من ذلك ان يكون اهتمام كاتبها متجها الى قضية الموت كمقابل للبعث او للقوى التي تشكل اسباب البقاء . والقصة بعنوان « موت انسان » بدأها محمد عبد الولي بملاحظة ان المجتمع يجب ان يتحرك .. حتى في شكل طاحونة او في رغبة عارمة للقات ! ولكن يحدث ان تبرز مشكلة كمشكلة مرض « ابن الحاج » المشلول ، فيجد المجتمع نفسه مسوقا الى التوقف بعض الشيء ، بل يصبح التوقف أمرا لا بد منه حين يموت المريض .

في هذه اللحظة يظهر ابناء المجتمع لا آدميين .. فعبد الرحمن يتردد بين الزيارة للعزاء والرجوع الى بيته ، وشاهر مشغول بأولاد اخيه ، والفقيه المغسل وراء الجبل في أرضه ، وبائعو القات يروحون ويجيئون ، والكفن مع ذلك يعد ، والقبر يحفر ، والمحمل على الباب في انتظار .

وتتخذ الحركات العادية صورة اللعن احيانا والترحم أحيانا اخرى ، ولكن الاحساس في كل الاحيان احساس بارد بالموت كحقيقة قائمة ويجب ان تقوم . وينتهي الامر بانهيار انساني ، لكنه يرضي حاجة الحي الى الحركة والى ان يفكر في كل شيء حتى في القات يبتاع على رأس الميت .

اذن فموت الانسان عند محمد عبد الولي لا يمكن ان يكون نهاية حياة وبالتالي لا يكون بداية حياة جديدة ، وانما هو امتداد للحياة نفسها .. فالطاحونة مثلا التي تتوقف لن تتوقف الا ريثما يقدم صاحبها العزاء ، والفقيه لم يأت من وراء الجبل الا ليعود اليه يعمل ، والشيخ الذي لعن المعزين لانهم يبتاعون القات ابتاع مثلهم ليتحرك او ليباشر حركته التي توقفت عندما توقف نفس ابن الحاج .

لقد رفض محمد عبد الولي ان يكون الجمود هو مبدأ الوجود ، كما سخر من الفكرة التي تقرر انه يمكن اخذ الانسان بقوانين ثابتة لا تتغير ، والا كان على أهل الميت مثلا ان يقيموا « ليلة الذكر » ذابحين الغنمة او على اصحاب المريض ـ قبل ان يموت ـ ان يعودوه في كل وقت كـ « أيام زمان » .

ومع ذلك فليست القصة كاملة الاستواء ، وأحسبها تستوي لو كانت خلصت من الفضول .. كوصكشاهر الجسماني ، وكاستهلال القصة نفسه ، وما يشوب السرد احيانا من تقريرية ، بالاضافة الى اقحام كلمات للمسيح بلا أية ضرورة ماسة .

قصة من الجزائر

ترجمها عن الفرنسية جورج سالم ، ومؤلفها عربي اسمه دريس الشرايبي ، فأين توضع ؟

الاجابة عسيرة من غير شك ، وهي تثير قضية الاداء اللغوي باعتباره أجناسا تدل على أجناس ، وتثير في الوقت نفسه أدب الذين يصدرون عن قوالب فرنسية او انكليزية وهم زنوج مثلا او افريقيون او هنود . ولعلها لا تقف عند هذا الحد ، وانما تعيد النظر ثانية فيمن كتب بالعربية قديما ـ كابن المقفع ـ ولسانه فارسي وله آثار بالفارسية ويعتز به الفرس او الايرانيون المعاصرون .

أجل .. ان الاجابة عسيرة ، ومن ثم نجاوزها حتى يتاح لاحد الدارسين ان يتعرض لها بالنظر الرشيد بعيدا عن الهوى ومخلصا للحقيقة وحدها .

صدر حديثا

تأليف
الدكتور عبد الجبار الجومرد

داهية العرب

ابو جعفر المنصور
مؤسس الدولة العباسية

دار الطليعة ـ بيروت ص. ب ١٨١٣

اما القصة التي تغري بكل هذا فبعنوان « منزل على شاطىء البحر » وموضوعها هو الرحلة .. ولكنها رحلة وراء الراحة ، كأنما هي نهاية المطاف بعد حياة دائبة أصابت الحواس بالوهن والاعياء .

وحتى نصل مع برتلمي ـ البطل العجوز ـ الى نهاية المطاف .. على شاطىء بعيد هادىء في احدى الجزر ، نجد الخوف في مقابل الرجاء مع رصد ذكي للمرور عبر الزمن . وبعبارة اخرى نقول ان الكاتب بعد ان يلخص فكرة الحياة يستشعر قلق ان يدهمه الفناء قبل ان يستمتع بفهم أعمق او بادراك للشيء الاخر الذي فيه . ومن ثم فهو في حاجة الى ان يبدأ من جديد ، بشرط ان يكون وحيدا يستمع الى الموسيقى وينظر الى البحر .

ونحس من قريب ان الاحساس بالنفي عنصر من عناصر المأساة في القصة ، ولكنه النفي الذي يختاره كل شخص أهدر حيويته الانسانية في لا شيء .

كم سنة قضاها برتلمي يعمل ؟
ستون ؟

اذن فله ان يستريح ، وليبع دكان عطارته ، وليقبض الثمن ، وليستعد للطواف او للنفي ليستبدل بالحرمان حرمانا اخر وان يكن المرء يتصور انه « يحصل على تقاعد بعد حياة كاملة من الحرمان » . وقد بدأ من مونت كارلو باحثا عن صخرة يبني عليها بيتا يتسع له حتى يموت ، والتمس الصخرة في كل شاطىء من شواطىء البحر المتوسط ، والتمسها أيضا على طول شواطىء الاطلس . وبعد ثلاثة أعوام استعان بباخرة حملته الى بورجوانفيل عاصمة جزر يو ، وفي جهة « بور ـ لا ـ مول » عثر على ضالته ولكن .. ولكنه لم يظفر بما أحب ، فآثر من جديد ان يعود فيفتح دكان عطارة في منفاه بالجزيرة .

لقد حسب لكل شيء حسابه ، غير أنه تبين ان حالة السلبية التي ضيعت منه سنوات في « دراسة » حالات البحر بالنسبة لصخرته التي اختارها ، لم يكن لها معنى الا أن تقفه على أن الحياة تقلب .. مد وجزر ، ولا مكان لجمود الفارغين !

ان رحلة برتلمي اشبه ما تكون برحلة السندباد ، وضياعه كضياع يوليسز على نحو ما .. وراء اي شيء ، ومن اجل ان يعرف حتى لكأنما المرء يشعر دائما ان ما نمي اليه قاصر كل القصور .

ودريس الشرايبي فيما يبدو من هذه القصة فنان يمزج عمله بأكثر قضايا عصره المحيرة ، من خلال الذات وعن تقدير منطقه الوجداني. ويمكن وصف طريقته كقاص بالطريقة الوجودية ، فهو يقف عند المشكلة ـ مشكلة الحياة كلها ـ ويسير بها عن طريق السرد والتداعي الى حيث تفرض الحياة منطقها ، وفي اثناء ذلك يكون الاستكشاف المنشود.

انه لا يفرض فلسفة ، ولكنه يشير الى ان الانسان الذي يجد من السهل جدا عليه ان يتقبل كل ما هو موجود STATUSqUO يثور على هذا المنطق العجيب ، ويصل الى النقطة التي تجمعه بواحد مثل كامو : ما هذا العالم ، وكيف يؤكد الانسان وجوده فيه ؟

ويظل السؤال دون اجابة ، غير اننا نلحظ ان معظم القيم تضيع عنده ، وان تظل قيمة واحدة باقية هي الحذر . بمعنى اننا يجب ان نحذر في معاناتنا ، وفي دأبنا ، وفي رغبتنا ان نستمر الى الابد .

ان الشرايبي الذي سجل رحلة النفي ببراعة في قصته هذه ، ليقف في مقدمة كاتبي القصة في العدد الثاني عشر لعام ١٩٦٣ المنصرم من مجلة الاداب ، بل لعله ان يكون في مقدمة من نقرأ لهم في أغلب الكتب الادبية والمجلات .

القاهرة — احمد كمال زكي

قريبا :

الحركة العربية الواحدة

بقلم

عبد الله الريماوي

تحليل علمي ثوري للواقع العربي والمعركة العربية بمنطق وحدة الهدف العربي يبين المتناقضات والمصالح والقوى المتصارعة في المعركة العربية في مرحلة التحول الثوري العربي .

● يفضح الوجوه والواجهات الجديدة للتحالف الاستعماري الصهيوني الرجعي واحتكارات البترول .

● **يشرح الواقع الحزبي في الوطن العربي على صعيد العقيدة والنضال والتنظيم في ضوء النشوء والتكوين والمواقف والمسالك وبالنسبة للقضية والمعركة ومهماتها.**

● يؤكد ان الحركة العربية الواحدة هي الصيغة الايجابية الثورية الوحيدة لوحدة النضال الجماهيري العربي وانتصار الثورة العربية وانها التجسيد العقائدي العلمي الصادق لوحدة الامة العربية وقوميتها .

لوحدة الثورة العربية وهدفها
لوحدة العقيدة العربية ومنطقها

هي ميلاد ـ بالثورة ـ جديد ، وليست تجميعا بالالتقاء للقديم القائم .

هي تخط تطلبه وتحدد معالمه الثورة والعقيدة والتجربة والجماهير :

للاحزاب والحركات والمنظمات القائمة في وجودها ومقوماتها وفي تعددها وفي منطقها النابع من ذلك الوجود والتعدد .

منشورات دار النشر للجامعيين